**المحاضرة الثانية : النقد و الفلسفة**

يتفرع البحث عن البدايات من أقدم حضارة عرفها التاريخ البشري، ليس لكونها الأصل و لكن لوضوح معالها واستمرارها في الزمن، الاستمرار الذي قاده زعماء التفكير البشري، سقراط، أفلاطون، ارسطو... و غيرهم كثير من الفلاسفة الذين حاولوا تفسير الطبيعة و التخلص من الهواجس و المخاوف التي كانت تحيط بعالمهم، فالبحث عن الحقيقة كان الهدف الذي سعى إليه الفلاسفة اليونان، فسلك الفلاسفة غير مسلك في سبيل تحرير الإنسان من سيطرة الأساطير و الآلهة، ذلك هو التحدي الذي رفع شعاره الفلاسفة، و رغم انتصار الدين في المرحلة الوسيطية إلا أن الكفة رجحت ثانية لصالح الفلسفة.

 فآمن أفلاطون بوجود عالم مثالي يضم الحقائق المطلقة و الأفكار الصافية و النتائج النهائية، و أن العالم الواقعي ما هو إلا صورة مشوهة للحقيقة لأنه متغير و زائل و منتهي، فوجب على الفلاسفة البحث عن الحقيقة بعيدا عن العالم الواقعي، فارتبط التفكير عنده بالأخلاق و المعرفة و الفضيلة، و لم يؤمن بغير هذه المبادئ و انتهى التفكير عنده سعيا في سبيل رسم حدود هذه الحقائق، و البحث في أصل الفلسفة الأفلاطونية يدرك أن آراء سقراط هي موجه هذه الأفكار، واعتقد أن الفلسفة الأفلاطونية ترديد لما قاله سقراط، خاصة أن سقراط لم يكتب من آرائه شيئا و تولى طلبته مهمة الكتابة.

 و لأن الأفكار لا تتناقض و لكن تتكامل و تنضج مع التأمل و التجربة، جاء أرسطو ليكمل ما بدأه أفلاطون ويؤمن بوجود فلسفة مثالية لكن ليست بالصورة التي رسمها أفلاطون، و لكن الأمر يختلف، و لعل اسم النظرية التي ارتبطت بهما يوجز أفكارهما، نظرية المحاكاة، العالم الواقعي يحاكي العالم المثالي إذ يشوهه، أما أرسطو فيرى أن العالم الواقعي وجد مشوها، و أن الفنان يقوم فاستكمال النقص الموجود في الطبيعة، و انطلق هذا التفكير من مقاربة المأساة اليونانية، فتكون أولى صور التفكير البشري، رغم أنها عبارة عن طقوس دينية أو احتفالات دينية، لكن الفلاسفة اليونان انطلقوا في بحثهم عن الحقيقة من هذا النموذج.

 و تعد الأفكار الأرسطية أكثر واقعية و منطقية لأنها آمنت بوجود عالم مثالي و جاوزته في الوقت ذاته إذ ترى أن البحث عن الحقيقة يجب أن ينطلق من الواقع، بما هو مركز الحس و منه كان لأرسطو الفضل في إحاطة الحقيقة بالتجربة الحسية من جهة و بالعقل البشري من جهة أخرى كونه المكمل لهذا النقص الموجود في الطبيعة، و رغم دخول أوروبا مرحلة القرون الوسطى بعد تحقيق النظرية الأرسطية للنجاح، و ذلك لأنه استطاع تطوير أفكار الفلاسفة الذين سبقوه والتحم ثانية بأفكار سقراط إذ أكد على مفهوم العقل المنظم و هو القوة الكونية التي ترتبط بالكون و تسير و أن الإنسان فقط يمكنه أدراكها كونه العاقل و المفكر الوحيد، و المعروف في التاريخ أن السبب في موت سقراط هو مقولته المشهورة، اعرف نفسك بنفسك.

 و بنزول الدين الجديد( المسيحية) لم يعد للفلاسفة مكان في عالم يلتحم بالتفكير الروحي، و يؤمن بخضوعه المطلق لإرادة غيبية، انتهت كل الأفكار الفلسفية و استسلم العالم الغربي لأوامر آباء الكنيسة، و صارت محاكم التفتيش الوصي على سلوكات البشر و أفكارهم، فدخلت أوروبا سباتا دام طويلا، كانت الفلسفة فيها عدوا و كفرا وجب الوقوف في وجهها، لأن منتهى التفكير الديني هي الخضوع المطلق و في مقابلها تكون الفلسفة تحريرا لفكر هذا الإنسان و استمر الأمر كذلك إلى حين دخلت أوروبا مرحلة جديدة، مرحلة الوعي و الذي كان نتيجة تطاول آباء الكنيسة و ادعائهم الألوهية و صار التدين واجهة تخفي بداخلها الممارسات غير الشرعية من ظلم و استيلاء على الحقوق الفردية و الجماعية تحت غطاء الدين، و فكانت ممارسات آباء الكنيسة أهم الأسباب التي قضت على مملكة الدين الجديد في ذلك العصر، و كان آباء الكنيسة أنفسهم هم من حملوا شعار التنوير في عصر النهضة بدءا بالنهضة الدينية و بعدها السياسية و بعدها الاقتصادية." فالتجريبيون يرون أن التجربة موحدة و منتظمة في جوهرها، لأن مصدر المعرفة عندهم هو الاحساس أما المثاليون فيرون أن التجربة منتظمة و موحدة لأنها تستعصي على العقل، فلا يخترقها و لا ينفذ إليها" ينظلر كتاب: المعرفة العلمية، مقال بين علم الأمس و علم اليوم ، ص 8.

 فالسعي وراء الحرية كان أول هدف سعى الإنسان إلى تحقيقه، بعد أن مل القيود الدينية الظالمة، التحرر من سلطة الكنيسة، و كشف زيف ادعاءات آباء الكنيسة، فكان الانقلاب و الشقاق الذي حل داخل الكنيسة بين آباء الكنيسة المخرج من هذا المأزق الذي أحاط بالإنسان، و منه نبرغ أبرز الفلاسفة العقلانيين، و ديكارت كانط هيغل...و اللذين أعادوا إحياء الافكار الأرسطية من جديد أرضية صلبة اتكأ عليها في سبيل البحث عن مخرج يقود البشرية إلى بر الأمان، و انتهج هؤلاء الفلاسفة من أجل بناء ركائز لتفكيرهم على طرق يتم العودة فيها لاستقراء الماضي ثانية و العودة بجواهر ما نتهى إليه التفكير الفلسفي اليوناني.

 فالعودة للتاريخ وفق معايير حسية و منطقية، هو السبيل الذي سلكه الفلاسفة في العصر الحديث.إلى أن استطاعوا رسم الخطوط العريضة للعصر الحديث و التي يوجزها الجدول التالي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| المقولة  | الحداثة | النظام التقليدي |
| المعرفة الحقيقةاللغةالنظامالتركيب الاجتماعي | الفكر/العقلعلمية/نقديةتحليليةديمقراطيةالطبقة | الاسطورة/الاعتقاددينية/تعليميةبيانية/خطابيةسلطوية/بيروقراطيةالعائلة/القبلية/الطائفية |

ينظر: محمد سبيلا و عبد السلام بن عبد العالي: الحداثة، ص 91